القسم الأول

الإنسان والعصر

- هذا الإنسان

١ – قصة الإنسان
- من المبتدأ إلى المنتهى
- اسجدوا لآدم
- أمانة الإنسان
- قضايا الحرية

٢ – مصير الإنسان
- الوجود والعدم
- جدل في البعث
- العرض والجوهر
- عالم الروح

٣ – إنسان العصر بين الدين والعلم
- الإنسان والقمر

بسم الله الرحمن الرحيم

« يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعي
إلى ربّك راضية مرضية . فادخلي
في عبادي وادخلي جنتي »

الإهداء

إلى « أمين الخولي » الإنسان . . .

صحبتُه في رحلة الحياة فتجلت لي فيه وبه ، آية الإنسان بكل عظمته وشموخه وكبريائه ، وجبروت عقله ومرهف حسه وعزة ضميره .

ثم مضى . . .

فعرفت منه وفيه ، مأساة الإنسان ، بكل هوانه وضعف حيلته وقصور طاقته .

وفيما بين حياته وموته ، أرهف إحساسي بقصة الإنسان من المبتدأ إلى المنتهى .

عائشة

مصر الجديدة
مارس : ١٩٦٩
المحرم : ١٣٨٩

هَـذا الإنسَـان

« اقرأ باسم ربّك الذي خلَقَ ، خلق الإنسانَ من علَق ، اقرأ وربّك الأكرمُ ، الذي علّم بالقلم ، علّم الإنسانَ ما لم يعلمْ ، كلاّ إن الإنسانَ ليَطْغَى ، أنْ رآه استغنى ، إنّ إلى ربّك الرجعى »

(سورة العلق)

---

* مستخلص من : « مقال في الإنسان : دراسة قرآنية » نشرته دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٩ .

الإنسان في القرآن الكريم ، غيرُ البشر :

فاستقراء مواضع ورود « بشر » في القرآن كله ، يؤذن بأن البشرية فيه هي هذه الآدمية المادية التي تأكل الطعام وتمشي في الأسواق . وفيها يلتقي بنو آدم جميعاً على وجه المماثلة التي هي أتم المشابهة .

وبهذه الدلالة ، ورد لفظ البشر ، اسمَ جنسٍ ، في خمسة وثلاثين موضعاً من القرآن الكريم ، منها خمسة وعشرون موضعاً في بشرية الرسل والأنبياء . مع النص على المماثلة ، فيما هو من ظواهر البشرية وأعراضها المادية ، بينهم وبين سائر البشر :

« ما يأتيهم من ذكرٍ من ربّهم مُحدَثٍ إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهيةً قلوبُهم ، وأسرّوا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشرٌ مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تُبصرون . قال ربي يعلم القولَ في السماء والأرضِ وهو السميع العليم . بل قالوا أضغاثُ أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسِل الأولون . ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون . وما أرسلنا قبلَك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهلَ الذكر إن كنتم لا تعلمون . وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين » .

(الأنبياء ٢ : ٨)

« ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قومِ نوح وعادٍ وثمودَ ، والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا اللهُ ، جاءتهم رسلُهم بالبينات فردّوا أيديَهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لَفي شكٍّ مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلُهم أفي الله شكٌّ فاطرِ السموات والأرضِ يدعوكم ليغفرَ لكم من ذنوبكم ويؤخرَكم إلى أجَلٍ مُسَمّى ، قالوا إن أنتم إلاّ بشرٌ مثلُنا تريدون أن تصدّونا عما كان يعبدُ آباؤنا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلُهم إنْ نحن إلا بشرٌ مثلكم ولكن اللهَ يمُنُّ على مَن يشاءُ من عبادِه وما كان لنا أن نأتيَكم بسلطانٍ إلا بإذن الله ، وعلى اللهِ فلْيتوكل المؤمنون »

(إبراهيم ٩ : ١١)

« ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذيرٌ مبين . أن لا تعبدوا إلا اللهَ إني أخاف عليكم عذابَ يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومِه ما نراك إلا بشراً مثلَنا وما نراك اتّبعك إلا الذين هم أراذلُنا باديَ الرأيِ وما نرى لكم علينا من فضلٍ بل نظنكم كاذبين . قال يا قومِ أرأيتم إن كنتُ على بَيّنةٍ من ربي وآتاني رحمةً من عنده فعُمّيَتْ عليكم أنُلزِمُكموها وأنتم لها كارهون . . . » .

(هود ٢٥ : ٢٨)

« قل إنما أنا بشرٌ مثلُكم يوحَى إليّ أنما إلهُكم إلهٌ واحدٌ فمن كان يرجو لقاءَ ربِّه فلْيَعملْ عملاً صالحاً ولا يشركْ بعبادةِ ربِّه أحداً »

(الكهف : ١١٠)

وانظر معها آيات : المؤمنون ٢٤ ، ٣٣ ، الشعراء ١٥٤ ، يس ١٥ ، فصلت ٦ .

وقد تأتي الآيات في تقرير بشرية الرسل دون التصريح بلفظ المماثلة فيها لبشرية الناس جميعاً ، لكن السياقَ فيها شاهد على هذه المماثلة وإن لم تُذكر بلفظها نصاً :

« وقالوا لن نؤمنَ لك حتى تَفجُر لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكونَ لك جنّةٌ من نخيل وعنبٍ فتُفجّرَ الأنهارَ خلالَها تفجيراً . أو تُسقطَ السماءَ كما زعمتَ علينا كِسَفاً أو تأتيَ بالله والملائكة قبيلاً . أو يكونَ لك بيتٌ من زُخرفٍ أو تَرقى في السماءِ ولن نؤمنَ لِرُقيّك حتى تُنزّلَ علينا كتاباً نَقْرؤه ، قُلْ سُبحانَ ربّي هل كنت إلا بشراً رسولاً » .

(الإسراء ٩٠ : ٩٣)

ومعها آيات : الأنبياء ٢٤ ، الفرقان ٢٠ ، الشورى ٢١ .

• • •

والإنسان في القرآن الكريم ، غير الناس .

لفظ الناس ، يأتي في النصّ القرآني نحو مائتين وأربعين مرة ، بدلالة واضحة على اسم الجنس لهذه السلالةِ الآدمية ، أو هذا النوع من الكائنات ، في عمومه المطلق :

« يا أيها الناسُ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا ، إن أكرمَكم عند الله أتقاكم »

(الحجرات : ١٣)

• • •

وهو أيضاً ، غير الإنس : بينهما ملحظٌ مشترك من الأصل اللغوي لمادة « أن س » في دلالتها على نقيض التوحش ،

ثم يختص كل من اللفظين في البيان القرآني ، بملحظ متميز وراء ذلك الملحظ المشترك .

لفظ الإنس :

يأتي دائماً مع الجن على وجه التقابل ، يطّرد ذلك ولا يتخلف في كل الآيات التي ورد فيها ذكر « الإنس » وعددها ثماني عشرة آية :

الأنعام ١١٢ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، الأعراف ٣٨ ، ١٧٩ ، الإسراء ٨٨ ، النمل ١٧ ، فُصّلت ٢٥ ، ٢٩ ، الأحقاف ١٨ ، الذاريات ٥٦ ، الجن ٥ ، ٦ وكلها آيات مكيات ،

ثم الرحمن : ٣٣ ، ٣٩ ، ٥٦ ، ٧٤ وهي مدنية .

وملحظ الإنسية هنا ، بما تعنى من عدم التوحش ، هو المفهوم صراحةً من مقابلتها بالجنّ في دلالتها أصلاً على الخفاء الذي هو قرين التوحش .

وبهذه الإنسية يتميز جنسُنا عن أجناسٍ أخرى خفية مجهولة لا تنتمي إلينا ولا تحيا حياتنا .

وليس من الضروري أن يقتصر مفهومُ الجنّ على ما ألفنا من إطلاقه على تلك الأشباح التي لا تظهر لنا إلا في تهاويل الظلمة وتصورات الوهم ، وإنما يتسع اللفظ — بدلالته الأصلية على الخفاء ، وبمقابلته للإنس — لأي جنسٍ غير بشري يعيش في عوالم غير منظورة ولا مُدركة ، وراءَ

حدودِ عالمنا الأرضي الذي نعيش فيه نحن الإنس ، ولا يخضع للسنَن والنواميس المعروفة التي توجه حياتنا وتحكمها .

وبهذا المدلول الرحب ، تنتفي شبهةُ الخرافة التي تدفع كثيراً من العصريين إلى رفض الاعتقاد في وجودِ الجن ، إذا قدّرنا أن الكشوفَ العلمية الحديثة لا تنفي احتمالَ وجودِ جنسٍ غيرنا ، يعيش في عوالمَ خفيةٍ كالكواكب ، لا نزال نجهلها وإن لم نكفّ عن السعي إلى اكتشاف خفاياها ومجاهلها .

• • •

فماذا عن الإنسان ؟

قلت إن اللفظ يلتقي مع الإنس في ملحظ مشترك من الدلالة اللغوية الأصلية للمادة على نقيض التوحش . ثم ينفرد كل منهما بملحظ خاص يميّزه عن الآخر .

فدلالة الإنسية ، هي المتعينة بمقتضى استعمال القرآن الكريم للفظ الإنس دائماً في مقابل الجن بما تعنيه من توحش وخفاء .

وأما « الإنسان » فليس مناط إنسانيته ، فيما نستقرئ من آيات البيان المعجز ، مجرد كونه منتمياً إلى فصيلة الإنس (الرحمن : ١٤ ، والحجر : ٢٦) كما أنه ليس مجرد بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق .

وإنما الإنسانية فيه ارتقاء إلى الدرجة التي تؤهله للخلافة في الأرض واحتمالِ تبعاتِ التكليف وأمانة الإنسان ، لأنه المختص بالعلم والبيان والعقل والتمييز ، مع ما يُلابِسُ ذلك كلّه من تعرّضٍ للابتلاء بالخير والشر ، وفتنةِ الغرور بما يحس من قوته وطاقته ، وما يزدهيه من

الشعورِ بقَدْرِه ومكانته في الدرجة العليا من درجات التطور ومراتب الكائنات .

بحيث ينسى في نشوة زهوه وكبرياء غروره ، أنه المخلوق الضعيف الذي يعبر رحلة الدنيا من عالم المجهول إلى عالم الغيب ، على الجسر المفضي حتماً إلى حفرة من تراب :

« أم للإنسان ما تمنى . فلله الآخرة والأولى »

• • •

وأمضي في تدبر آيات القرآن عن هذا « الإنسان » بوجه خاص ، اجتلاء لملامح صورته وخصائص إنسانيته التي يتميز بها عن مجرد كونه فرداً من النوع البشري أو من الإنس .

وقد ورد لفظ « الإنسان » في القرآن الكريم ، في خمسة وستين موضعاً ، نتدبر سياقها جميعاً ، فنطمئن إلى الدلالة المميزة للإنسانية .

ونبدأ بسورة العلق ، أول ما نزل من كتاب الإسلام ، وفيها يمكن أن نجتلي الملامح العامة للإنسان ، وقد تكرر ذكره في هذه السورة الأولى ثلاث مرات :

إحداها : تلفت إلى آية خلقه من عَلَقٍ .

والثانية : تشير إلى اختصاصه بالعلم .

والثالثة : تحذر مما يتورط فيه من طغيان ، حين يتمادى به الغرورُ فيرى أنه استغنى عن خالقه :

« اقرأ باسمِ ربِّك الذي خلق . خلق الإنسانَ من علَق . اقرأ وربُّك الأكرمُ . الذي علّم بالقلم . علّمَ الإنسانَ

ما لم يعلم . كلا إن الإنسان ليَطغى . أن رآه استغنى .
إن إلى ربك الرّجْعَى »

هذه هي السماتُ المجملة للإنسان ، كما بدتْ في السورة الأولى من القرآن . ثم تتابعت الآياتُ من بعد ذلك تَزيدها جلاءً وبياناً ، بما تضيف إليها من إضاءة كاشفة لدقيق الملامح وخفي النوازع .

وقد تكررت الإشارةُ إلى خلق الإنسان من علقٍ ، أو من ترابٍ ومن نطفة ثم علقة ، في آيات كثيرة . وليس من شأني هنا أن أعرض لما يخوض فيه المحدثون من تأويلات علمية لهذه الآيات ، فلست من أصحاب هذا المذهب . وإنما قصارى جهدي أن أتدبر آيات كتابنا الأكبر ، وأصغي إلى إيحاء سياقها .

وآيات خلق الإنسان ، جاءت كلها في سياق العظة والاعتبار ، لافتة إلى أطوار الجنين البشري التي يدركها الناسُ بأيسر ملاحظة وانتباه . ويبدو في الآيات العمدُ الواضح إلى الاستدلال بها على القدرة الإلهية على البعث :

« فلينظر الإنسانُ مِمَّ خُلِق . خُلِقَ من ماءٍ دافق .
يخرجُ من بين الصُّلْبِ والتّرائب . إنه على رَجْعِه لقادر »
(الطارق ٥ : ٨)

« قُتِل الإنسانُ ما أكفرَه . من أيّ شيء خلقه . من نطفة
خلقه فقدّره . ثم السبيلَ يسّره . ثم أماته فأقبره . ثم إذا
شاء أنشره »
(عبس ١٧ : ٢٢)

« إنا خلقنا الإنسانَ من نُطْفة أمشاجٍ نبتليه فجعلناه سميعاً

بصيراً . إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً »

(الإنسان ٢ : ٣)

« أوَ لم يرَ الإنسانُ أنا خلقناه من نُطفةٍ فإذا هو خصيمٌ مبين . وضرب لنا مَثَلاً ونسي خلقَه قال مَن يُحيي العظامَ وهي رميم . قلْ يُحييها الذي أنشأها أوّلَ مرة وهو بكلِّ خلق عليم »

(يس ٧٧ : ٧٩)

« ألم يكُ نطفة من مَنِيٍّ يُمْنَى . ثم كان عَلَقَةً فخلَقَ فسَوّى . فجعل منه الزوجين الذكرَ والأنثى . أليس ذلك بقادرٍ على أن يُحيِيَ الموتى » ؟

(القيامة ٣٧ : ٤٠)

« أكفرتَ بالذي خلَقك من ترابٍ ثم من نُطفة ثم سوّاكَ رجلاً » ؟

(الكهف : ٣٧)

وإذا كان الأسلوب العلمي في التشريح والأحياء ، لا يتعلق بمثل الكفر أو الشكر والإيمان ، والخصومة والابتلاء والغرور . . .

فإن طبيعة النصِّ القرآني من حيث هو كتابُ هُدى ودين ، تقتضي توجيهَ كلِّ لفظٍ وآية إلى مناطِ الهداية والاعتبار .

ولمثل هذه الغاية ، يحرص كتاب الإسلام على تذكير الإنسان بهوانه وضعفه ، فيلفته إلى خلقِه من تراب ، أو من طين أو من نطفة ، أو من علقة ثم من نطفة ، أو من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب . — ولا شيء من هذا يحتاج الإنسان فيه إلى دراسة علمية ليدركه — كبحاً لجماح غرورِه كيلا يتجاوز قدره فيطغى ويستكبر . والإنسان مظنة أن

يتمادى به الطغيان والغرور إلى حد الكفر بخالقه ، والوقوف منه سبحانه موقف خصيم مبين :

« خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين » .
(النحل : ٤)

« وخُلِق الإنسانُ ضعيفاً »
(النساء : ٢٨)

« أو لا يذكرُ الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً »
(مريم : ٦٧)

« يا أيها الإنسانُ ما غرّك بربّك الكريم . الذي خلقكَ فسوّاك فعدّلك . في أيِ صورةٍ ما شاء ركّبَك »
(الانفطار ٦ : ٨)

ومن شأن الإنسان أن ينسى ربّه في حالِ النعمة والقوة ، فأما إذا مسّه الضرّ فإنه يذكر خالقه في ضراعة وابتهال :

« وإذا مَسّ الإنسانَ الضرُّ دعانا لجنبِه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفْنا عنه ضرّه مرّ كأن لم يدعُنا إلى ضُرٍّ مَسّه ... »
(يونس : ١٢)

« وإذا مَسّكم الضرُّ في البحرِ ضلّ مَن تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البرِّ أعرضتم وكان الإنسان كفوراً »
(الإسراء : ٦٧)

وانظر معها آيات : هود ١٠ . والإسراء ١١ ، ٨٣ ، والزمر ٨ ، ٤٩ ، والشورى ٤٨ .

فذلك هو مزيدُ تفصيلٍ وبيان لما في آية الوحي الأولى :

« كلا إن الإنسان لَيَطْغَى . أنْ رآه استغنى »

• • •

والإنسان في القرآن الكريم هو الذي يختص بالعلم :

« علّم الإنسانَ ما لم يعلم »

(العلق : ٥)

والبيان :

« الرحمن . علّم القرآن . خلق الإنسان . علّمه البيان »

(الرحمن : ١ : ٤)

وبما تهيأ له من وسائل التعقل والتبصر ، والتمييز بين الخير والشر . وذلك كله من جوهر إنسانيته . وبها يحمل الأمانةَ ، ويحتمل تبعاتِ التكليف ، ومسؤوليةَ الثواب والعقاب :

« وأنْ ليس للإنسانِ إلا ما سعى . وأنْ سعيَه سوفَ يُرى. ثم يُجزاه الجزاءَ الأوفى »

(النجم ٣٩ : ٤١)

« أيحسب الإنسان أن يُتْرك سدى » ؟

(القيامة : ٣٦)

« وكلَّ إنسانٍ ألزمناه طائره في عُنُقِه ونُخرجُ له يومَ القيامةِ كتاباً يلقاه منشورا . اقرأ كتابَك كفى بنفسِك اليومَ عليك حسيباً »

(الإسراء ١٣ : ١٤)

ثم إن الإنسان هو الذي يحتمل الوصية (لقمان ١٤ ، العنكبوت ٨) وهموم المكابدة ، واقتحام العقبة لتحقيقِ وجوده الإنساني وأداء مسؤوليته الاجتماعية :

« لقد خلقنا الإنسان في كبَد . أيحْسَبُ أنْ لن يَقدِرَ عليه أحدٌ . . . »

« ألم نجعل له عينين . ولساناً وشفتين . وهديناه النجدين
« فلا اقتحم العقبةَ . وما أدراك ما العقبة »

(البلد ٤ ، ٥ ، ١١ ، ١٢)

« والعصرِ . إن الإنسانَ لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصَوْا بالحق وتواصوْا بالصبر »

(العصر)

كما أنه الذي يتعرض لتجربة الابتلاء ومحنة الغواية (الفرقان ٢٩ ، ق ١٦ ، الحشر ١٦ ، الإنسان ٢) .

ويظل الإنسان ما عاش كادحاً لمصيره ، محتملاً هموم المكابدة وتجربة الابتلاء حتى يحين الأجل فيمضي . . .

فما أعجبَ قصة هذا الإنسان في رحلته العابرة ما بين الحياة والموت :

هل تعدو أن تكون في مُجْمَلها إلا كما وصفها البيانُ القرآني :

« لقد خلقنا الإنسانَ في أحسن تقويم . ثم رَدَدْناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ فلهم أجرٌ غيرُ ممنون »

(التين ٤ : ٦)

* * *

فلنتابع التأمل في هذه القصة ، من المبتدأ . . . إلى المنتهى .